الأستاذ: النذير ضبعي
السنة: أولى ماستر
المادة: آليات الحجاج
التخصص: نقد حديث ومعاصر
المحاضرة رقم05 من 12
عنوان المحاضرة: الحجاج والنظرية التواصلية

لقد أصبح الحجاج اليوم شأنا من شؤون التواصل، يديره علماء التواصل. فالأخصائيون في التواصل هم الذين يدرسون فن الحوار السياسي في التلفزة، والرسائل الإشهارية التي تحمل طابعا حجاجيا، وهم الذين يقدمون الاستشارة للمسؤولين عن شؤون التجارة في المقاولات، ويضعون مخطط الحملات الدعائية.

ولم يثر الحجاج اهتمام اللسانيين إلا مع تطور الدراسات التداولية التي تعد من أبرز الدراسات التي تهتم بالتواصل، على الرغم من أنه يشكل جزءا هاما في حياتنا اليومية، فهو ظاهرة اجتماعية وثقافية له علاقة بالاستدلال والمنطق، محايث لنظام اللغة الداخلي، ومنفتح على العالم الخارجي، ومرتبط بدواعي القول؛ ذلك أن التواصل لا يتم من أجل لا شيء، بل يأتي بهدف التأثير في السامع، أو على الأقل الاتفاق معه، وذلك عن طريق تحريك اعتقاد أو تبرير قرار أو الدفع إلى عمل؛ لأن الحجاج يتوجه إلى الاعتقاد بالدرجة الأولى؛ أي كل ما يتعلق بترتيب القيم بدل ترتيب الحقائق، نظرا لعلاقة القيم بما هو ممكن وما هو محبذ، عكس البرهان الذي يهتم بترتيب الحقيقة[1].

وقد أصدر كل من بيرلمان وتيتكا سنة 1958 مؤلفا هاما في الحجاج، وهما عالمان مختصان في المنطق يبحثان عن وسائل الحجة في الفلسفة والاشهار والقانون والسياسة والحوار اليومي والعلوم الإنسانية بصفة عامة.

يرى بيرلمان أن التقنيات الحجاجية نجدها في التلفزة وعلى مائدة الطعام وفي المحكمة وفي عالم الأعمال[2]. فهو يمارس على جميع الأصعدة، فالحاكم يحاول الإقناع، والفلاح كذلك...، هذا ما يعزز انتماءه إلى الكفاءة التداولية للإنسان السّوي، بوصفها دليلا على مهاراته الخطابية. كما يهدف الحجاج إلى تحقيق الكثير من الأهداف التربوية، فقد استخدمه الأنبياء لهداية الناس.

وإلى جانب أعمال "بيرلمان" هناك أبحاث المتخصصين في علم النفس الاجتماعي في مجال الدعاية والإقناع وبصفة عامة في التواصل الفعال.

---

[1] - ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، ص125.
[2] - ينظر: ليونيل برينجر، الآليات الحجاجية للتواصل، ص40.

وفي سنة 1935 صدرت مؤلفات ل "أسويل" و"كازي" و"سميث" حول الدعاية والأنشطة التنموية، وأصدر "بافيد" في نيويورك الحجاج والحوار والمناظرة. وقدم في كتابه الحوار باعتباره الأداة المثلى لبلوغ نتائج مقبولة موضوعيا، حيث يبحث المتحاورون بنزاهة ودون تعصب لرأي مسبق عن أفضل حل لمشكلة ما. وفي المقابل درس "هوفلاند" الحجاج في سياق تواصلي مع الجمهور.

كما يعدّ الحجاج رافدا من روافد التأويل، إذ أن المؤول حين يحاجج خصمه يحاول أن ينتصر لزعم تأويلي على حساب زعم تأويلي آخر يعتقد بفساده، وهو ما يجعل الحجاج آلية تصنع الكون التأويلي، وتبني عوالم الاعتقاد الممكنة. فهذا التصاهر بين الحجاج كعملية مركبة تتجمع في محيطها كفاءات مختلفة، مثل اللغة والتداول والتعامل والعقائد والتصورات... وبين العمل التأويلي كعمل يتجاوز حدود العملية التفسيرية التي لا يشغلها سوى التأصيل الابستمولوجي المعرفي، والضبط المعجمي الدلالي ليحل في محيط الدائرة التأويلية[3].

لذلك فإن "الظفر بعصا طاعة الجهور مشروط بالأفعال الخطابية والنجاعات البرهانية التي يحدثها قول المحاجج في جمهوره، اذ كلما كانت تلك الأفعال توافقية مع قواعد المجال التداولي (حاجات الجمهور/ أشراط القول/ مقامات التلفظ...) كان الحجاج ناجعا، والتأويل نافذا، وكلما كانت تلك الأفعال تخالفية مع قواعد المجال التداولي كان الحجاج باردا، والتأويل قاصرا، لذلك اشترط المنظرون في الحجاج الناجع التوافق، وعلقوا به الانسجام"[4].

من هنا يصبح الحجاج آلية تواصلية ورافدا تأويليا يؤثر فيه السياق، فهو مقولة لغوية مركبة لها وصل بمقامات الخطاب وسياق التلفظ، ينوي من خلالها المحاجج/ المؤول "كتابة أنحاته ورسم بلاغاته رسما يحصل منه التيقين، ويجوز من ورائه التمكين، من جهة كونهما معيارين أساسيين بهما تقاس النجاعة، وتضبط من خلالهما القوة البرهانية التي يشغلها الخطاب المرسل والكلام الموجه إلى عموم الجمهور أو خصوصه، وذلك حسب الدواعي المقامية والغيب الاستراتيجي الذي تثوى وراءه نوايا المحاجج، وتتستر خلفه هواجس المستدل"[5].

من هنا يمكن القول إن المقولة الحجاجية هي مقولة تواصلية تستخدم في جميع المجالات والميادين سواء كانت خطابات يومية أو تعليمية أو تربوية، كما يتجلى أكثر في الخطاب الإشهاري والسياسي.

---

[3] - ينظر: علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل، ص463

[4] - المرجع نفسه، ص484.

[5] - علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل، ص21.